

أصوات قرآنا وألحانهم؛ ما يُحمد منها وما يُذم

د. إبراهيم أحمد إسماعيل (★)

مستخلص البحث:

الحمد لله الذي منّ علينا بالقرآن العظيم، وتعبّدنا بتلاوته، وحثّنا عليه، ووعدنا عليها بالثواب الجزيل، فقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّنْ تَبُورَ ۖ لِيُؤْفِقَهُمْ أَجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ ۗ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾^(١). والصلاة والسلام على رسولنا الكريم الذي أيّده بهذا القرآن ليكون معجزته الخالدة إلى يوم القيامة، فأمره سبحانه أن يتلوه آناء الليل وأطراف النهار، فقال تعالى: ﴿يَتْلُوهَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِيُذَكِّرَ الَّذِينَ لَمْ يَتَذَكَّرُوا ۗ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(٢)، فامتثل صلوات الله وسلامه عليه أمر ربه، فجعل تلاوة القرآن شغله الشاغل، واستفرغ في ذلك وسعه ولم يأل.

(★) أستاذ التفسير المشارك بكلية أصول الدين، جامعة أمدرمان الإسلامية، الخرطوم، السودان.

(١) سورة فاطر، الآيتان (٢٩، ٣٠).

(٢) سورة المزمل، الآيات من (٤-١).

ثم أمر صلى الله عليه وسلم أصحابه بذلك بعد أن أقرأهم إياه تبليغاً لرسالة ربه، فقاموا أيضاً بتلاوته تقرُّباً إلى ربهم، وتأسياً واقتداءً برسولهم الكريم، فكانوا يقرؤونه في بيوتهم، وفي مساجدهم، حتى روي أنه يُسمع لهم دويٌّ كدويِّ النحل، وكان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يسمعهم فيثني عليهم ويحثهم على ذلك، فعن أبي موسى الأشعري (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): (إني لأعرف أصوات رُفقة الأشعرين بالليل حين يدخلون، وأعرف منازلهم من أصواتهم بالقرآن بالليل وإن كنت لم أر منازلهم حين نزلوا بالنهار)^(١). وهذا الشاء من رسول الله (صلى الله عليه وسلم) على أصحابه على تلاوتهم للقرآن؛ يزيدهم حرصاً على تلاوته، فيتنافسون في ذلك، حتى أصبح القرآن الكريم يشغلهم عن كل ما سواه، وهكذا مالوا أوقاتهم بتلاوة القرآن، حتى إذا انتقل رسولهم الكريم (صلى الله عليه وسلم) إلى الرفيق الأعلى، كانوا خير خلفٍ له في تبليغ القرآن لمن بعدهم، ونقلوا حرصهم على تلاوته ومداومتهم عليها إلى من بعدهم من التابعين، فكان لهم من بعدهم أيضاً مع القرآن شأنٌ حكاه لنا التاريخ، يدلُّ على عظمِ اهتمام هذه الأمة بكتاب ربها وتقديسها له.

وبعدُ: فهذا بحث أردت أن أُبين به جانباً من علوم القرآن أرى الناس في بلادنا لم يهتموا به اهتماماً يليق بعظمته وخطورته، ولم

(١) الحديث متفق عليه رواه البخاري، حديث رقم (٤٢٣٢) ضمن موسوعة الحديث الشريف، ص: ٣٤٧، ومسلم، حديث رقم (٢٤٩٩) ضمن موسوعة الحديث الشريف، ص: ١١١٧.

يقدموا دراسات جادة ودقيقة له، هذا الجانب هو أصوات وألحان القارئ لكتاب الله تعالى بين الناس، في صلواتهم، ومناسباتهم، وفي وسائل الإعلام المرئية والمسموعة، حيث أصبحت قراءة القرآن تأخذ حيزاً مقدراً في برامج هذه الوسائل الإعلامية، بل وهنالك إذاعات متخصصة في قراءة القرآن الكريم تبث نماذج من القراءة على مدار اليوم، فيسمعها الناس، ويتفاعلون معها، ويتحدثون عن إعجابهم بهذا القارئ أو ذاك، ويصدرون عليهم أحكاماً متباينة معظمها لا يستند إلى شيء من قواعد القراءة التي قَعدها أهل التلقي والإتقان وهم أئمة هذا الشأن الذين أخذوا القرآن بالشفاهة المُسنَّدة إلى من نزل عليه القرآن (صلى الله عليه وسلم).

أقول: يصدر بعض الناس أحكامهم في التفاضل بين هؤلاء القارئ، اعتماداً على مجرد الذوق والتشهي، دون الرجوع إلى القواعد المعتمدة من أهل الشأن، وكأنهم بذلك يجعلون القرآن (ربما بغير قصد) مثل الأشعار والأغاني التي يتحاكم الناس فيها إلى أذواقهم، فيفاضلون بين هذا وذاك منها، وهذا أمرٌ لا يجوز إقرارهم عليه، ولا السكوت عنه، بل يجب على أهل الشأن أن يقوموا بواجبهم، فيحققون الحق ويطلقون الباطل، ويضعون الأمور في نصابها في هذا الأمر الخطير المتعلق بكتاب الله، وهو أقدس وأغلى ما يملكه المسلمون.

وبما أنني من أهل هذا الشأن المتخصصين فيه، أرى واجباً عليّ أن أدليّ بدلوي وأقول رأيي المستند إلى الحجج والبراهين المستمدة من السنن وعلم السلف الصالح، حتى يتضح الصواب

من الخطأ، والحق من الباطل ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾^(١).

وها أنا أقدم هذا البحث، سائلاً الله العليّ القدير التوفيق والعون والسداد.

منهجني في هذا البحث:

[١] سلكت في هذا البحث المنهج الاستقرائي الوصفي؛ بذكر الأدلة والبراهين من الأحاديث وأقوال السلف، ثم تطبيقها على واقع الإقراء في زماننا، وفي بلدنا السودان خاصة.

[٢] وقد قسمته إلى ثلاثة مباحث كالآتي:

المبحث الأول: فيما جاء من تحسين الأصوات بالقرآن الكريم من القرآن والأحاديث المرفوعة.

المبحث الثاني: فيما جاء في ذلك من أقوال السلف وأئمة القراءة من ضوابط وشروط لذلك.

المبحث الثالث: فيما يجري في واقعنا بالسودان من أنواع الإقراء ما يُستحسن منها وما يُستقبح.

[٣] الخاتمة: وتشمل نتائج البحث والتوصيات.

(١) سورة الأنفال، الآية (٤٢).

- [٤] نسبتُ كل الآيات التي ذُكرتْها إلى سورها، وبيّنتُ رقمها.
- [٥] خرّجتُ الأحاديث التي استشهدت بها، وبيّنتُ مصادرها.
- [٦] ترجمتُ لمعظم الأعلام الذين مرّ ذكرهم أثناء البحث.
- [٧] تركتُ بعض الأعلام ولم أترجم لهم، اعتماداً على شهرتهم، وطلباً للاختصار.
- [٨] جعلتُ فهرساً للأعلام وفهرساً آخر للمراجع، وذلك في آخر البحث.

المبحث الأول

الآيات والأحاديث الواردة في استحباب تحسين الأصوات بالقرآن الكريم

اقتضت حكمة الله سبحانه وتعالى أن ينزل القرآن بألفاظٍ في غاية الجمال والحسن، كما أنّ معانيه في غاية العظمة والجلال، ومن هنا كان القرآن الكريم معجزاً من جميع جوانبه اللفظية والمعنوية، ولذلك نجد أنّ الله سبحانه وتعالى يأمر رسوله (صلى الله عليه وسلم) بقراءة القرآن بطريقة تختلف عمّا ألفه العرب في خطبهم وإلقاء أشعارهم، فاسمع إلى قوله تعالى: ﴿وَقَرَأْنَا مَا فَرَّقَهُ لِقِرَاءَةٍ﴾

عَلَى النَّاسِ عَلَى مَكِّثٍ وَزَلَّزْنَهُ نَزِيلًا ﴿١﴾. فكلمة "على مكث" تفسيرها كالاتي: قال ابن الجوزي^(٢): "على تُؤدِّدُ وتَرْسُلُ ليتدبَّروا معناه"^(٣).

وقال ابن عطية^(٤): "وتأولت فرقة قوله تعالى "على مكث" أي تَرْسُلٍ فِي التَّلَاوَةِ وَتَرْتِيلٍ، هذا قول مجاهد وابن عباس وابن جريح وابن زيد، والتأويل الآخر أي: على مكث وتطاول في المدة شيئاً بعد شيء"^(٥). وقال تعالى: ﴿وَرَتَّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴾^(٦).

(١) سورة الإسراء، الآية (١٠٦).

(٢) هو الإمام عبد الرحمن بن علي بن عبد الله البكري، من ولد أبي بكر الصديق (رضي الله عنه) أبو الفرج بن الجوزي البغدادي الحنبلي الواعظ، صاحب التصانيف المشهورة في أنواع العلوم، كان مبرزاً في التفسير، الواعظ والتاريخ ومتوسطاً في المذهب والحديث، ولد سنة ٥١٠هـ، وتوفي سنة ٥٩٧هـ.

(٣) زاد المسير في علم التفسير، المجلد الكبير، ط/١، الجديدة، ١٤٢٣هـ، ٢٠٠٢م، دار ابن حزم للطبع والنشر، بيروت، لبنان، ص: ٨٣٥.

(٤) هو عبد الحق بن غالب بن عطية، الإمام الكبير، قدوة المفسرين، أبو محمد الغرناطي القاضي، حدّث عن أبيه الحافظ الحجة أبي بكر، وعن أبي علي النسائي، ومحمد بن الفرج الطلاعي، وخلاتق، كان فقيهاً عارفاً بالأحكام والحديث والتفسير، بارعاً بالأدب، بصيراً بلسان العرب، له التفسير المشهور (المحرر الوجيز)، توفي سنة ٥٤٢هـ.

(٥) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، المجلد الموحد، ط/١، ١٤٢٣هـ، ٢٠٠٢م دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ص: ١١٧١.

(٦) سورة المزمل، الآية (٤).

يقول الإمام ابن الجزري^(١): "وأما الترتيل فهو مصدر رَتَلَ فلانُ كلامه، إذا أتبعَ بعضه بعضاً على مكثٍ وتفهُمٍ من غير عجلة، وهو الذي نزل به القرآن، قال تعالى: ﴿وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً﴾"^(٢)، وروينا عن زيد بن ثابت (رضي الله عنه) أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال: (إنَّ الله يحب أن يُقرأ القرآن كما أنزل) [أخرجه ابن خزيمة في صحيحه]. وقد أمر الله تعالى نبيه (صلى الله عليه وسلم) فقال: (وَرَتَّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً)، قال ابن عباس: بيَّنه، وقال مجاهد: تأنَّ فيه، وقال الضحَّاك: انبذهُ حرفاً حرفاً، يقول تعالى تلبَّث في قراءته وتمهَّل فيه، وافصل الحرف من الحرف الذي بعده، ولم يقتصر سبحانه على الأمر بالفعل حتى أكَّده بالمصدر؛ اهتماماً به، وتعظيماً له، ليكون ذلك عوناً على تدبُّره وتفهُمه"^(٣).

فهذه الآيات تفيده أن القرآن ينبغي أن يُقرأ بطريقة متميزة، أطلق عليها القرآن لفظ (ترتيلاً)، وهي طريقة متأنيّة، متمهّلة، جميلة، لتكون وسيلة للتدبُّر والفهم.

(١) هو الإمام أبو الخير محمد بن محمد بن الجزري المحقق، ترجم لنفسه في غاية النهاية فقال: ولد سنة ٧٥١هـ، طوَّف في البلاد، وجمع الأسانيد، ولقي عدداً كبيراً من المشايخ، ألف النشر في القراءات، غاية النهاية للمؤلف نفسه، ط/١، ١٣٥٢هـ، ١٩٣٣م، نشر: ج.برجستراسر، ج٢، ص: ٢٤٧.

(٢) سورة الفرقان، الآية (٣٢).

(٣) النشر في القراءات العشر، ج١، ص: ١٦٥.

وأما الأحاديث الواردة في تزيين الأصوات بالقرآن فمنها ما رواه الإمام البخاري بسنده عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال له: (يا أبا موسى لقد أوتيت مزماراً من مزامير آل داود).

وروى الإمام مسلم بسنده عن عبد الله بن بُريدة عن أبيه قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): (أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ قَيْسٍ أَوْ الْأَشْعَرِيَّ؛ أُعْطِيَ مِزْمَارًا مِنْ مِزَامِيرِ آلِ دَاوُدَ)^(١).

وروى بسنده عن أبي موسى أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) قَالَ لِأَبِي مُوسَى: (لَوْ رَأَيْتَنِي وَأَنَا أَسْمَعُ قِرَاءَتَكَ الْبَارِحَةَ، لَقَدْ أُوتِيتَ مِزْمَارًا مِنْ مِزَامِيرِ آلِ دَاوُدَ)^(٢).

وروى الإمام علم الدين السخاوي^(٣) بسنده، عن البراء بن عازب قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): (زَيَّنُوا الْقُرْآنَ

(١) صحيح مسلم، ضمن موسوعة الحديث الشريف، ص: ٨٠٢، حديث رقم (٢٣٥).

(٢) الحديث متفق عليه، رواه البخاري في فضائل القرآن ضمن موسوعة الحديث الشريف، ص: ٤٣٧، حديث رقم (٥٠٤٨)، ومسلم ضمن موسوعة الحديث الشريف، ص: ٨٠٢، حديث رقم (٢٣٦).

(٣) هو الإمام علي بن محمد بن عبد الصمد، علم الدين السخاوي، المقرئ، المفسر، النحوي، شيخ القراء بدمشق في زمانه، ولد سنة ٥٥٩هـ، وقدم من سخا، وأخذ القراءات عن أبي القاسم الشاطبي، توفي سنة ٦٤٣هـ (رحمه الله). الذهبي: محمد بن أحمد، معرفة القراء الكبار، ص: ٣٤.

بأصواتكم). وعن أبي هريرة عن النبي (صلى الله عليه وسلم): (زَيَّنُوا
أصواتكم بالقرآن)^(١).

وروى البخاري بسنده عن أبي هريرة (رضي الله عنه) قال: قال
النبي (صلى الله عليه وسلم): (ليس مِنَّا من لم يتغنَّ بالقرآن)^(٢).
وزاد غيره: (يجهر به).

وروى الإمام القرطبي^(٣) زيادة في حديث أبي موسى المتقدم،
أنَّ أبا موسى قال لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) عندما قال له:
أعطيت زمماراً من مزامير آل داود (لو أعلم انك تستمع لقراءتي
لحبرته لك تحبيراً)^(٤). هذه الزيادة لم توجد في رواية الصحيحين،
ولكن قال المحققون: "صحّت من طرق أخرى".

(١) جمال القراء وكمال الإقراء، تحقيق الدكتور: علي حسين البواب، ط/١، ١٤٠٨هـ، ١٩٨٧م، المؤسسة
السعودية بمصر، ص: ٩٧.

(٢) صحيح البخاري، ضمن موسوعة الحديث الشريف، ص: ٦٢٨، حديث رقم (٧٥٢٧).

(٣) هو الإمام محمد بن أحمد فرح الأنصاري الخزرجي المالكي أبو عبد الله القرطبي، مصنّف التفسير
المشهور الذي سارت به الركبان، والتذكرة وغيرها، توفي سنة ٦٧١هـ، رحمه الله. السيوطي، طبقات المفسرين،
ص: ٩٢.

(٤) الوجيز في فضائل الكتاب العزيز، تحقيق الدكتور علاء الدين علي رضا، دار الحديث، القاهرة، بدون
تاريخ، ص: ٥٢.

وعن أبي هريرة (رضي الله عنه) أنه سمع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقول: (ما أذن الله لشيءٍ ما أذن لنبىِّ حسن الصوت، يتغنّى بالقرآن يجهر به)^(١).

وروى الإمام القرطبي (رحمه الله) عن حذيفة أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال: (اقرأوا القرآن بلحون العرب وأصواتها، وإياكم ولحون أهل الفسق، ولحون أهل الكتابين، وسيجيء بعدي قومٌ يرجعون بالقرآن ترجيع الغناء والنوح، لا يجاوز حناجرهم، مفتونةٌ قلوبهم وقلوب من يعجبهم شأنهم)^(٢).

وفي الجامع الصغير للسيوطي: (اقرأوا القرآن بلحون العرب وأصواتها وإياكم ولحون أهل الكتابين وأهل الفسق، فإنه سيجيء بعدي قومٌ يرجعون بالقرآن ترجيع الغناء، والرهبانية والنوح، لا يجاوز حناجرهم، مفتونةٌ قلوبهم وقلوب من يعجبهم شأنهم)^(٣).

(١) الحديث متفق عليه، رواه البخاري في فضائل القرآن، باب من لمن يتغن بالقرآن، ضمن موسوعة الحديث الشريف، ص: ٤٣٥، حديث رقم (٥٠٢٣). ورواه مسلم في باب تحسين الصوت بالقرآن، ضمن موسوعة الحديث الشريف، ص: ٨٠٢، حديث رقم (٢٣٢٢).

(٢) الوجيز في فضائل الكتاب العزيز، ص: ٦٦.

(٣) السيوطي، الجامع الصغير لأحاديث البشير النذير، ط/١، ١٤٢٣هـ، ٢٠٠٢، دار الكتب العلمية، بيروت، ص: ٨٣، حديث رقم (١٣٣٩).

ويتحصّل من الآيات والأحاديث الصحيحة المرفوعة المتقدّمة الآتي:

[١] أنّ القرآن ينبغي أن يُقرأ قراءةً متأنيةً متمهلاً تساعد على التدبُّر والفهم.

[٢] أنّه يُستحب تجميل الصوت بقراءة القرآن وفقاً للضوابط التي وضعها أهل التحقيق من أئمة القراءة.

[٣] ويلزم من ذلك بالطبع جواز رفع الصوت بتلاوة القرآن؛ إذ إنّ رسول الله (صلى الله عليه وسلم) سمع قراءة أبي موسى من خارج منزله.

[٤] أنّ القرآن ينبغي أن يُقرأ بأصوات العرب وألحانها بدون تكلف، وأنّ القراءة بأصوات المغنّين وألحانهم؛ مذمومة.

المبحث الثاني

في ما جاء عن السلف في تحسين الأصوات بالقراءة، وما وضعه أئمة

القراءات من الضوابط والشروط لذلك

تقدّم من المبحث السابق النصوص الصحيحة الصريحة في استحباب تحسين الصوت بالقرآن، وهنا نذكر أقوال السلف في هذا الشأن.

يقول الإمام النووي^(١) (رحمه الله): "أجمع العلماء (رضي الله عنهم) من السلف والخلف من الصحابة والتابعين ومن بعدهم من علماء الأمصار أئمة المسلمين على استحباب تحسين الصوت بالقرآن، وأقوالهم وأفعالهم مشهورة نهاية الشهرة، فنحن مستغنون عن نقل شيء من أفرادها"^(٢).

وهذا الذي ذكره الإمام النووي من إجماع العلماء على استحباب تحسين الصوت بالقرآن على إطلاقه، مشروطٌ بشروطٍ لا بُدَّ منها عند أهل التحقيق، ولذلك نجد النووي نفسه بعد عدة سطور من كتابته هذا الإجماع يقول: "قال العلماء (رحمهم الله): فيستحب تحسين الصوت بالقراءة وتزيينها، ما لم يخرج عن حد القراءة بالتمطيط، فإن أفرط حتى زاد حرفاً أو أخفاه؛ فهو حرام، وأمّا القراءة بالألحان فقد قال الشافعي في موضعٍ: أكرهها، وقال في موضعٍ: لا أكرهها"^(٣).

(١) هو الشيخ محيي الدّين يحيى بن شرف بن مري النووي، أبو زكريا، شيخ الإسلام، ولد في محرم سنة ٦٣١هـ بنوى، وكان أبوه من أهلها المستوطنين بها، وقدم دمشق سنة ٦٤٩هـ، وقد حفظ القرآن فسكن بالمدرسة الرواحية، فاشتغل بالعلم ودرس على العلماء، من أهم مصنّفاته "شرح صحيح مسلم"، توفي سنة ٦٧٦هـ. ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج ٥، ص: ٣٠٥.

(٢) التبيان في آداب حملة القرآن، تحقيق: زهير شفيق، ط/١، ١٤٢٤هـ، ٢٠٠٤م دار الكتاب العربي، بيروت، ص: ٨٢.

(٣) التبيان في آداب حملة القرآن، ص: ٨٣.

ويقول الإمام حافظ بن حجر^(١): "...وكان بين السلف اختلاف في جواز القرآن بالألحان، أما تحسين الصوت، وتقديم حسن الصوت على غيره؛ فلا نزاع في ذلك، فحكى عبد الوهاب المالكي عن مالك تحريم القراءة بالألحان، وحكاها أبو الطيب الطبري، والماوردي، وابن حمدان الحنبلي، عن جماعة من أهل العلم، وحكى ابن بطل، وعياض، والقرطبي من المالكية، والماوردي والبندنجي، والغزالي من الشافعية، وصاحب الذخيرة من الحنفية؛ الكراهة، واختاره أبو يعلى، وابن عقيل من الحنابلة، وحكى ابن بطل عن جماعة من الصحابة والتابعين الجواز، وهو المنصوص للشافعي، ونقله الطحاوي من الحنفية، وقال الفوراني من الشافعية في الإبانة: الجواز، بل يستحب، ومحل هذا الاختلاف إذا لم يختل شيء من الحروف عن مخرجه، فلو تغير قال النووي في التبيان: أجمعوا على تحريمه"^(٢).

ويمكن تلخيص أقوال هؤلاء الفقهاء كالاتي :

(١) هو شيخ الإسلام، علم الأعلام، أمير المؤمنين في الحديث، حافظ العصر، شهاب الدّين أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر الكنتاني العسقلاني الأصل، المصري المولد والمنشأ والدار والوفاة، الشافعي، ولد سنة ٧٧٣هـ، ومات والده وهو حدث السن، وكفله بعض أوصياء والده إلى أن كبر وحفظ القرآن العظيم، وتعانى المتجر، وتولع بالنظم، وقال الشعر الكثير المليح، ثم حَبَّبَ الله إليه طلب الحديث، فأقبل عليه وهو مؤلف فتح الباري شرح صحيح البخاري وكفاه، توفي سنة ٨٥٢هـ، رحمه الله. ابن العماد الحنبلي،: شذرات الذهب، ج٧، ص: ٢٧٠.

(٢) فتح الباري، تحقيق الشيخ عبد العزيز بن باز (رحمه الله)، ط/١، ١٤٢٧هـ، ٢٠٠٧م، دار الفكر، ج١، ص: ٥٢٦٢.

[١] الإمام مالك يقول بتحريم القراءة بالألحان، ويوافقه على ذلك جماعة من أهل العلم.

[٢] بعض المالكية وبعض الشافعية وبعض الأحناف يقولون بالكراهة، ويوافقهم معظم الحنابلة.

[٣] رُوِيَ عن الشافعي وبعض أصحابه جواز ذلك.

[٤] هذا الاختلاف إذا لم يختل حرف من الحروف عن مخرجه، فلو تغيّر، فقد أجمعوا على التحريم.

وقد وضّح الإمام القرطبي ذلك أوضح بيان، حيث قال: "قلت وهذا الاختلاف إنّما هو ما لم يفهم معنى القرآن بترديد الأصوات، وكثرة الترجيحات، فإن زاد الأمر على ذلك حتى لا يفهم معناه؛ فذلك حرام باتفاق، كما يفعل القراء بالديار المصرية الذين يقرءون القرآن أمام الملوك والجنائز، ويأخذون في ذلك الأجور والجوائز، وضلّ سعيهم، وخاب عملهم، فيستحلّون تغيير كتاب الله، ويهونون على أنفسهم الاجترار على الله بأن يزيدوا في تنزيله ما ليس فيه، جهلاً بدينهم، ومروقاً عن سنة نبيهم، ورفضاً لسير الصالحين فيه من سلفهم، ونزوعاً إلى ما يزين لهم الشيطان من أعمالهم، وهم يحسبون أنّهم يحسنون صنعا، فهم في غيهم يترددون، وبكتاب الله

يتلاعبون، فإنَّ الله وإنَّا إليه راجعون. لكن قد أخبر الصادق أنَّ ذلك سيكون، فكان كما أخبر (صلى الله عليه وسلم)^(١).

ثم الحديث المتقدِّم: "اقرأوا القرآن بلحون العرب... الخ. فهذه أقوال السلف، وآراء فقهاء المذاهب في التلحين، أمَّا أهل الشأن والاختصاص (وهم علماء القراءات) فهؤلاء لم يكتفوا بالإنكار؛ بل قعدوا القواعد، ووضعوا الضوابط، فبيّنوا بذلك ما يصح من الأصوات والألحان وما لا يصح من الأصوات؛ بياناً شافياً مضبوطاً بضوابط محدّدة تحديداً دقيقاً، يمكن أن تُقاس به الأصوات إجرائياً. وخلاصة القواعد التي قعدوها هؤلاء العلماء أنَّ درجات القراءة عندهم أربع، هي:

[١] التحقيق. [٢] الترتيل. [٣] التدوير. [٤] الحدر.

فأعلاها التحقيق، وبعده الترتيل، وأدناها وأسرعها الحدر، وفوقه التدوير. وقد شرح هذه الدرجات المحقق ابن الجزري (رحمه الله) فقال: "وأما كيف يُقرأ كتاب الله؟ فإنَّ كلام الله تعالى يُقرأ بالتحقيق والحدر، وبالتدوير الذي هو التوسُّط بين الحالتين؛ مرتلاً مجوداً، بلحون العرب وأصواتها، وتحسين اللفظ والصوت بحسب الاستطاعة، أمَّا التحقيق فهو مصدر من حقَّقْتُ الشيء تحقيقاً إذا بلغت يقينه، وهو عندهم عبارة عن إعطاء كل حرفٍ حقه من إشباع المد، وتحقيق الهمز، وإتمام الحركات، واعتماد الإظهار، والتشديدات، وتوفية الغنّات، وتفكيك الحروف، وهو

(١) الوجيز في فضائل الكتاب العزيز، ص: ٦٦.

بيانها، وإخراج بعضها من بعض بالسكت، والترسُّل، واليسر والتَّؤدة. وأمَّا الحَدْر فهو مصدر من حَدَرَ (بالفتح) يَحْدُرُ (بالضم) إذا أسرع. قلتُ: وهذا النوع أي (الحَدْر) هو مذهب ابن كثير أبي جعفر وسائر من قصر المنفصل. وأمَّا التدوير فهو عبارة عن التوسُّط بين المقامين من التحقيق والحدر. وأمَّا الترتيل فهو مصدر من رَتَّلَ فلاَنٌ كلامه إذا أتبع بعضه بعضاً على مُكْثٍ وتَفَهُهُمٍ من غير عجلة، وهو الذي نزل به القرآن، قال تعالى: ﴿وَرَتَّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً﴾^(١)^(٢).

هذا كلام المحقق ابن الجزري، فدرجات التلاوة عنده أربع؛ هي على الترتيب: التحقيق، الترتيل، التدوير، الحدر (كما تقدّم).

غير أنَّ عالماً آخر عاش قبل ابن الجزري بحوالي مائة عام، وهو أبو الحسن القرطبي^(٣) جعلها ثلاث؛ فدمج بين التحقيق والترتيل، وجعلهما مرتبةً واحدة، يقول (رحمه الله): "...فمنهم من ذهب فيها إلى الترتيل وهو التحقيق، فيمطط الحروف ويشبع الحركات أو حروف المد واللين على الإطلاق، ويبالغ في الشدِّ والهمز وأشباه ذلك من غير إفراط في شيء من ذلك، فخير الأمور أوسطها، فتكون مدة الطبيعة

(١) سورة المزمل، الآية (٤).

(٢) النشر في القراءات العشر، ج ١، ص: ١٦٤.

(٣) هو الإمام أبو الحسن علي بن سليمان بن أحمد بن سليمان الأنصاري القرطبي المالقي نزيل فاس، ومقرئ فاس، صهر الشيخ أبي الحسن الصغير وأحد أشياخه، وسيط أبي الحجاج بن مصاعد، توفي سنة ٧٣٠هـ. ابن الجزري، غاية النهاية، ج ١، ص: ٧٥٥.

من نسبة حركاته؛ المدة ناشئة عن الحركة ومتولدة عنها. ومنهم من ذهب فيها إلى الحدر، فلا يمطط الحروف، ولا يشبع الحركات، بل يخطفها خطفاً من غير إخلالٍ بشيءٍ من صفاتها، ومنهم من توسّط^(١).

فهذا الشيخ عدّ مراتب التلاوة ثلاث، ولعله مذهبٌ له خاص، على أنّ مذهب الجمهور أنّها أربع كما ذكرها ابن الجزري، ثم قسّم الشيخ أبو الحسن المذكور هذه الدرجات الثلاث على القراء السبعة قائلًا: "الأولى طبقة الترتيل والتحقيق، وهي لحمزة، ونافع في رواية ورش عنه، والثانية طبقة من مال إلى التحقيق والترتيل، وهي لعاصم وحده، والثالثة طبقة من لم يمل إلى أحد الطرفين، وهي لابن عامر والكسائي، والرابعة طبقة من مال إلى الحدر، وهي لأبي عمرو في رواية الدوري عن الزبيدي عنه، ولقالون في رواية أبي نسيب عنه، والخامسة طبقة أهل الحدر والهدّ، وهي لابن كثير ولأبي عمرو في رواية السوسي عن الزبيدي عنه، ولقالون في رواية الحلواني عنه"^(٢).

هذا التقسيم من الشيخ أبي الحسن لم نجده عن غيره، ولا شكّ أنّه تحديد تقريبي يساعد على تحديد مراتب التلاوة الأربع أو الثلاث كما يراها على التقريب، حتى يستطيع القراء أن يضعوا تحديداً دقيقاً ربما بواسطة الأجهزة الصوتية في

(١) ترتيب الأداء وبيان الجمع في الإقراء، تحقيق ودراسة: عبد الله بن محمد، ط/١، ١٤٣٤هـ، ٢٠١٣م، دار الأمان للنشر والتوزيع، الرباط، المغرب، ص: ١٣٥.

(٢) ترتيب الأداء، ص: ١٣٩.

المستقبل إن شاء الله، وليس ذلك بمستحيل، ولكنه يحتاج لمجهود من أهل التخصص.

وهذه الدرجات تبين كيفية التلاوة من حيث السرعة أو التمهّل أو التوسط بينهما، ولكنها لا تتعرض للألحان والأصوات، فهل يعني هذا أن أهل القراءات (وهم أهل الشأن) لم يتعرّضوا للألحان كما فعل الفقهاء؟ الجواب على ذلك: لا، بل إن أهل القراءات تعرّضوا للألحان ووصفوها وصفاً دقيقاً، وبينوا ما يصح منها وما لا يصح، فهذا هو الشيخ أبو الحسن القرطبي نفسه وهو من أئمة القراء، نجده يتعرّض لذلك بالتفصيل، حيث قال: "حدّثني أبو الحسن بن كُرز بقراءتي عليه، قال: حدّثنا أبو القاسم بن عبد الوهاب، قال: قال لي شيخنا الأهوازي: اعلم أن القرآن يُقرأ على عشرة أضرب، بالتحقيق، وباشتقاق التحقيق، وبالتجويد، وبالتمطيط، وبالحدرد، وبالتريعيد، وبالتريقص، وبالتطريب، وبالتلحين، وبالتحزين. قال: وسمعت جماعة من شيوخنا يقولون: لا يجوز للمقرئ أن يقرأ منها بخمسة أضرب: بالتريعيد، وبالتريقص، وبالتطريب، وبالتلحين، وبالتحزين. وأجازوا القراءة بالخمسة الباقية، إذ ليس للخمسة أثر، ولا فيه نقل عن أحد من السلف، بل ورد إلينا أن بعض السلف كان يكره القراءة لذلك قال: وأمّا التريعيد في القراءة فهو أن يأتي بالصوت إذا قرأ مضطرباً كأنه يرتعد من برد أو ألم، وربما لحق ذلك من يطلب الألحان.

وأمّا التريقص فهو أن يروم على سكت السواكن، ثم ينفر مع الحركة كأنه في عدوٍ وهرولة، وربما دخل في ذلك من يقرأ بالتجويد أو التحقيق، وهذا أدقّ معرفة من

الترعيد، وأمّا التطريب فهو أن يتنغم بالقراءة، وترنّم بها، ويزيد في المد في مواضع المد وغير مواضع المد، وربما أتوا في ذلك بما لا يجوز في العربية، وربما دخل في ذلك من يقرأ بالتمطيط. وأمّا التلحين فهو الأصوات المعروفة عند من يعني بالقصائد وإنشاد الشعر، وهي سبعة ألحان، وقد أتى القرآن بثامن ليس في أصواتهم، والذي يُلحّن إذا أتى باللحن، لا يخرج منه إلى سواه. وقد اختلف السلف في جواز ذلك، فكرهه قومٌ وأجازه آخرون^(١).

فهذا الشيخ يذكر بإسناده إلى أبي علي الأهوازي (وهو من أئمة القراءة) أنّ القرآن يُقرأ على عشرة أضرب (أي أنواع)، ثم يذكر أن خمسة منها تجوز القراءة بها، وهي: التحقيق، واشتقاق التحقيق (ولعله الترتيل)، والتجويد، والتمطيط، والحدرد. وخمسة منها لا تجوز القراءة بها، وهي: الترعيد، والترقيص، والتطريب، والتلحين، والتحزين. فهذه الخمسة الأخيرة لا تجوز عنده القراءة بها؛ لأنها لم تؤثر عن السلف.

وهذه الخمسة الممنوعة يُجملها بعضهم في عبارة واحدة، هي: ترجيع الغناء، يقول الإمام ابن أبي مريم^(٢): "وكيف يجوز ترجيع الغناء في القرآن، وفيه خروج كثير

(١) ترتيب الأداء، ص: ١٦٣.

(٢) هو الإمام نصر الله بن علي بن محمد أبو عبد الله الشيرازي الفارسي الفسوي النحوي، يعرف بابن أبي مريم، قال ياقوت: "خطيب شيراز وعالمها وأديبها والمرجوع إليه في الأمور الشرعية والمشكلات الأدبية". أخذ عن محمود بن حمزة الكرمانى وصنّف "التفسير"، و"شرح إيضاح الفارسي"، توفي بعد ٥٦٥هـ، رحمه الله. السيوطي، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، ط/٢، ١٣٩٩هـ، ١٩٧٩م، ج ٢، ص: ٣١٤.

من الحروف عن مخارجها، كالزيادة في المد على حروف المد، حيث لا مد هناك، وزيادة الصوت بحروف لا تكون فيها تلك الزيادة؛ فلهذا نُهي عنه^(١).

فهذا الشيخ أجمل الأنواع الخمسة في عبارة واحدة، هي: ترجيع الغناء، ثم بين أسباب المنع بأنه فيه خروج كثير من الحروف عن مخارجها، وفيه زيادة المد عن حده بلا مُقتضى، والمد حيث لا حرف مدّ، والحق يُقال أنّ القراءة بأصوات الغناء لا تكون إلا بذلك كما هو مشاهد، ويعرفه أهل التخصص؛ ولذلك ينبغي الالتزام بقواعد القراءة ومراعاة اللحن المأثورة عن السلف؛ وذلك لصون القرآن الكريم الذي هو كلام الله من العبث والتلاعب لأجل إرضاء العامة أو لأجل كسب الشهرة والإعجاب.

فهذه أقوال أئمة القراءة الذين هم أهل الشأن، والذين نقلوا إلينا القرآن عن طريق التلقي والمشافهة بأسانيدهم المتصلة برسول الله (صلى الله عليه وسلم).

المبحث الثالث

فبما يجري فينا واقعنا في السودان ما يستحسن منه وما يستقبح

دخل الإسلام في السودان (كما يقول علماء التاريخ) لا عن طريق الفتح كما هو الشأن في مصر وشمال إفريقيا وغربها، وإنما عن دخل طريق الهجرات المتفرقة

(١) الموضح في وجوه القراءات وعللها، ط/١، ١٤١٤هـ، ١٩٩٣م، تحقيق ودراسة: الدكتور عمر حمدان الكبيسي، مكة المكرمة، ج١، ص: ١٥٦.

من مداخل كثيرة، وذلك عدا الجزء الشمالي الأقصى منه (دنقلا)، حيث فُتح كما يقول المؤرخون في عهد سيدنا عثمان بن عفان (رضي الله عنه)؛ ولذلك لا نجد في تاريخنا القديم قبل مملكة سنار أثراً لمؤسسات علمية تُدرّس العلوم الشرعية، بل ظل غالبية أهل السودان في ذلك التاريخ بدون علوم تُذكر، ثم دخل القرآن الكريم على أيدي الدعاة والمصلحين، وذلك فيما يبدو برواية الدوري عن أبي عمرو البصري التي انتشرت في شرق السودان ووسطه بصفة عامة، ثم دخلت رواية ورش عن نافع فيما يبدو عن طريق المغرب، وانتشرت في أجزاء من غرب السودان حتى دنقلا، وأنشأت لتدريسه مؤسسات لا تزال قائمة حتى وقتنا الحالي، وهي الخلوات أو الخلاوي كما يسميها بعضهم، وهي مؤسسات أهلية يقوم على إنشائها ورعايتها رجال من الشيوخ الخيّر الذين ينفقون عليها وعلى طلابها دون الحصول على دعم كبير من الدولة.

منهج التدريس والدراسة في هذه الخلاوي:

يقوم منهج الدراسة في الخلوة على نظام التلقين للمبتدئين، وعلى نظام العرض والتسميع للمتقدمين، حيث يعرض الدارس على الشيخ القرآن مبتدئاً من المفصل أو من سورة الناس، مقطعاً مقطعاً حتى يختم القرآن بسورة البقرة، ثم يتبدى مرة أخرى من البقرة إلى سورة الناس نزولاً من أعلى، ويسمى ذلك النزول بالعودة، وهذه العودة قد تتكرر مرات على حسب ذكاء الدارس، وفي النهاية يعرض الدارس على الشيخ القرآن كله من أوله إلى آخره، فإن وجده حافظاً متقناً، أجازته، ويعتبر بعد ذلك شيخاً متقناً.

هذه هي طريقة التلقّي في الخلوة، وعلى الرغم من هذا العرض المتكرر، فإنّ هنالك قصوراً ونقصاً في بعض الجوانب في أداء الدارسين في الخلوة، تبيّن وظهر بعد الانفتاح على البلدان الأخرى التي كانت لديها مؤسسات علمية متكاملة مثل مصر؛ وذلك الانفتاح والاتصال له قصة، خلاصتها: أننا كنا نقرأ القرآن في السودان بدون تجويد، كما توجد أخطاء في الروايات التي نقرأ بها، مثل رواية الدوري، ورواية ورش، وكانت قراءتنا مليئة بالأخطاء والعيوب، والذي يستمع لتسجيلات قارئنا في الإذاعة في الخمسينات والستينات ويستمع لها الآن يتبيّن له الفرق بوضوح، واستمر هذا الحال حتى منتصف الستينات؛ حيث أنشأ وزير التعليم الصالح: بدوي مصطفى (رحمه الله رحمة واسعة) مؤسسة إحياء نار القرآن، واختار مديراً لها الشيخ أحمد إسماعيل البيلي (مدّ الله في عمره) فذهب هذا الأخير (كما أخبرني بنفسه) إلى الأزهر الشريف ليستقدم علماء التجويد والقراءات، ولم تبخل علينا مصر؛ حيث جاء بكبار علماء القراءات إلى السودان (أذكر منهم شيوخنا الأجلاء: الشيخ محمد سليمان صالح، والشيخ محمود حافظ برانق، والشيخ محمد فريد الصبّاح، والشيخ أمين إبراهيم)، كان ذلك حوالي سنة ١٩٦٨م، وبمجرد وصولهم، أنشئت مراكز التجويد الليلية، فتدافع حفظة القرآن إليها من كل حدب وصوب، ودرس عدد منهم التجويد لأول مرة، واكتشفوا أنّ قراءتنا كانت مليئة باللحن والأخطاء، غير أنّ مدة الدراسة في هذه المراكز لم تكن كافية نسبياً؛ حيث كانت ثمانية أو ستة شهور (فيما أعلم) وهي غير كافية على أية حال لمحو أخطاء كثيرة ومتجدّرة، بل كان يحتاج القضاء عليها آماداً أكثر بكثير، ولكن على أية حال هي نعمة كبيرة على حفظة

القرآن، واستفادوا منها وأفادوا، غير أن هذه النعمة للأسف لم تدم طويلاً؛ حيث قام انقلاب مايو ١٩٦٩م، والذي كان في بدايته يسيطر عليه الشيوعيون، وهم أعداء مثل هذه التوجّهات بداهةً، وكنا نحن الذين حفظنا القرآن سنة ١٩٧٠م - ١٩٧١م أن جئنا نبحث عنها بشغف وشوق، ولكننا لم نجد إلا ذكرياتها، فصدّمتنا صدمة كبيرة بذلك، ولكننا ظللنا ننتظر الفرج من الله سبحانه وتعالى وهو عنده قريب، ولم يمض بعد ذلك إلا عام واحد، فأوقع الله الخلاف بين الشيوعيين وبين نميري ونحن نشاهد ذلك، ثم كانت محاولتهم الانقلابية في يوليو ١٩٧١م وكانت نهايتهم . ثم إن الأمور بعد ذلك بدأت تتغيّر لصالحنا؛ حيث بدأ الرئيس نميري يتصالح مع المجتمع، بل ويتجه نحو الإسلام من جذوره في السودان، فأنشأ وزارة للشؤون الدينية لأول مرة في السودان، وعيّن عليها رجلاً متديناً هو الدكتور/ عون الشريف قاسم (رحمه الله) فدعا الشيخ البيلي (مدّ الله في عمره) حفظة القرآن في رئاسة المؤسسة بالمقرن، وخطب فيهم مبشراً بإنشاء معهد نهاري لتجويد القرآن مدته سنتان، وأنه يسعى بجد لينقل المؤسسة من وزارة التعليم التي لم تكن تعطي هذه الأمور اهتماماً يذكر لهيمنة العلمانيين عموماً والشيوعيين خصوصاً عليها، إلى وزارة الشؤون الدينية الوليدة، ولم تمضِ إلا شهور حتى أُعلن في الصحف عن إنشاء مركز أو معهد التجويد النهاري المرتجى، فتدافع حفظة القرآن الكريم من أنحاء البلد ليتقدموا للقبول في هذا المعهد، فملاً استمارات التقديم نحو ١٢٠ حافظاً، وأُجريت لهم اختبارات لذلك، ولكن بعد إعلان النتائج اعتذرت المؤسسة عن استيعابهم جميعاً لضيق الميزانية، وأنّها لا تستطيع أن تستوعب في الدفعة الأولى غير (٢٠) حافظاً فقط، فأخذوهم

بالترتيب من رقم (١) إلى رقم (٢٠)، واعتذروا للباقيين، ووعدوهم في العام المقبل باستيعاب عدد أكبر، وقد تشرفتُ أنا، حيث كنت في الدفعة الأولى.

وأمرنا بالتوجه إلى جامع (شروني) حيث مقر الدراسة، وكان شيوخنا أربعة من خيرة علماء القراءات بالأزهر، فنالت تلك الدفعة من التدريب المُركّز ما لم تنله أي دفعة جاءت بعدها، فكنا نأخذ حصتين في التجويد العملي التطبيقي، وحصتين في التجويد النظري يومياً، وحصّة واحدة كل يوم في حفظ المتون وتسميعها، وقد ثبت لنا يومئذ أنّ قراءتنا التي جئنا بها من الخلاوي كانت مليئة باللحن والأخطاء الفاحشة إلى درجة أرهقت معلم التجويد العملي، وكان رجالاً مخلصاً للقرآن، لا يسمح بتمرير أي خطأ في القرآن، فكان يتعجب من قراءتنا ويسبنا، ومع ذلك يصبر على تصويبنا وقد أوقفنا مرةً أسبوعاً كاملاً في كلمة واحدة لم نستطع نطقها كما ينطقها هو، حتى نطقناها كما ينبغي، ولم يتجاوز بنا حزباً واحداً من القرآن لمدة شهرين كاملين حتى قوّم ألسنتنا على التجويد والنطق الصحيح للحروف والكلمات، فجزاه الله خير الجزاء، ورحمه الله رحمةً واسعة.

بعد ذلك تتابعت الدفعات في المعهد، ثم رُقِع إلى معهد للقراءات، وبدأ الإقراء في السودان يدخل عهداً جديداً، وتسامع الناس بذلك وتناقلوه في كل مكان، ثم أنشئت معاهد أخرى مشابهة في السودان كان شيوخها وأساتذتها خريجي ذلك المعهد، وأخيراً أنشئت كلية القرآن التي أصبحت فيما بعد جامعة القرآن الكريم والعلوم الإسلامية، وكل ذلك أدى إلى نتيجة لا بُدَّ من الاعتراف بها؛ وهي أنّ

قُرَاء السُّودان اليوم يقرءون القرآن بأداء لم يكن على عهد أسلافهم، وهو على درجة كاملة من التجويد وحسن الأداء؛ غير أنَّ شيئاً برز إلى الوجود، وهو يحتاج إلى وقفات ودراسات وإصلاحات، ألا وهو أصوات أهل السُّودان ونبرهم المخالف لنبر وأصوات العرب؛ وزاد الأمر تعقيداً ما ظهر به القراء أخيراً مما يُعرف بلهجة أو لحن (الدوبيت)، وهي ظاهرة استرعت انتباه المختصين في القرآن، وبدأوا يعقدون الورش والجلسات لدراسة هذه الظاهرة التي أزعجتهم، وهي ظاهرة يقف الناس في السُّودان حيالها موقفين: فعامة الناس معجبون بها غاية الإعجاب؛ لأنها تتفق مع أذواقهم وما ألقوه من أغانيهم وأهازيجهم؛ وأهل التخصص وهم أهل القراءات والتجويد؛ منزعجون منها غاية الانزعاج، وهم يفكرون الآن بكل جهد للقضاء عليها أو حصارها والحد من انتشارها واتساعها؛ لأنها تخالف لحن العرب وأصواتها، وقد تقدّمت أقوال العلماء من الخلف والسلف في الحث على الالتزام في قراءة القرآن بالحن العرب وأصواتها، والتحذير من الألحان المبتدعة التي تشبهه بالحن الغناء والنياحة والرهبان، وإذا كان السلف قد حدّروا من تلك الألحان وهي عربية، فنحن في السُّودان نعاني من شيءٍ آخر وهو أسوأ من ذلك؛ ألا وهو ألحاننا التي ليست عربية وأخص منها لحن الدوبيت^(١) الذي كثيراً ما سبب لنا إخراجاً عندما نجتمع مع

(١) نقل الشيخ عبد المنعم الربيع رئيس قسم القراءات بجامعة القرآن الكريم والعلوم الإسلامية بالخرطوم عن الدكتور مأمون عبد الرحمن مدير معهد الإمام الشاطبي للقرآن الكريم بحي كافوري بالخرطوم أن: "هذه الكلمة أصلها فارسي، ويقصدون بها الغناء". فهي إذاً ليست عربية، ونحن في السُّودان نعرف أن الدوبيت نوع من الغناء اشتهر بين رعاة الإبل في منطقتي البطانة وشمال كردفان حيث تكثر الإبل، ويتغنى رعاتها بهذا النوع من الغناء، وهو شبيه بما كان يُعرف بالحداء عند العرب، وهو في حد ذاته فن جميل لا نرى به بأساً، ولكن

الآخرين في المناسبات الدولية، مثل المهرجانات والمسابقات؛ حيث يتفوق علينا حتى الأعاجم الذين استطاعوا أن يقلدوا الألحان العربية، فأتوا منها بما جعلنا معزولين تماماً دون غيرنا في هذا المجال، ولكي لا يقول قائلٌ هذا رأيك الشخصي، فيأتي أذكر فيما يلي آراء وأقوال أهل الشأن والتخصُّص في هذا البلد.

يقول البروفيسور يوسف الخليفة أبو بكر (مد الله في عمره): "وطريقة التغني أو القراءة بالألحان تختلف من أمة إلى أمة، وقد تختلف من شخصٍ لآخر، وكثيراً ما تتأثر قراءة القرآن بالألحان القومية الشائعة في الأمة؛ فإذا استمعت لباكستاني يقرأ القرآن؛ لوجدت لحنه متأثراً في الغالب بالتنغيم الشائع لدى الباكستانيين، وكذا الأمر بالنسبة للسوداني أو المغربي، وقد يكون من العسير على الفرد التخلُّص من اللحن الذي ألفه من بيئته منذ نعومة أظفاره، ونحن نجد في بعض الشعوب العربية أقواماً أخذوا من التغني بالقرآن ملهأةً لجذب الناس إلى السماع ولو أدى ذلك إلى خروج التلاوة عن قواعدها المقررة لها، والخشوع اللازم لها على الحد الذي يذهب معه وضوح الألفاظ والمعاني. ولعلَّ الوقت قد حان لكي يختار أئمة القراءات طريقة أداء نموذجية معبرة لترتيل القرآن، ويمكن أن تدوّن تدويناً دقيقاً بالنوتة الموسيقية لضبط حدود الحركات النغمية والايقاعات صعوداً وهبوطاً؛ وذلك منعاً للتلاعب بكتاب الله.

للأسف انتقلت نغمته وصوته إلى تلاوة القرآن، واشتهر بذلك بعض القراء، وأعجب بهم العامة أيما إعجاب بخلاف أهل الشأن أو التخصُّص.

ومهما يكن من أمر؛ فينبغي أن يكون التغيّي بالقرآن متفقاً مع العربية وفي الحدود التي قرّرها علماء التجويد^(١).

ويقول الدكتور الطيب محمود عبد القادر عميد كلية القرآن بجامعة القرآن الكريم والعلوم الإسلامية بالعاصمة السودانية الخرطوم: "إنّ ما يُعرف في السودان بلحن الدوبييت، لا يجوز بل يحرم؛ لمخالفته لقواعد القراءة؛ إذ إنّ القراءة توقيف، لأنّ القارئ أو المقرئ إنّما يأخذ أو يأخذون القرآن من أفواه من سبقهم وهكذا بسند متصل برسول الله (صلى الله عليه وسلم)، فاتّبِعوا ولا تبتدعوا"^(٢).

ويقول الدكتور النعيم حمزة الرئيس السابق لقسم القراءات بكلية أصول الدين بجامعة أم درمان الإسلامية بالخرطوم: "إنّ كل ما يخل بقواعد القراءة من أنواع التغيّي والتمطيط، لا تجوز القراءة به، ومنها ما يُعرف بلهجة أو لحن الدوبييت"^(٣).

ويقول الدكتور محمد أحمد محجوب الأستاذ المساعد بقسم القراءات بجامعة أم درمان الإسلامية، وإمام وخطيب مسجد جيرة شمال بالخرطوم: "إنّ القراءة بهذا

(١) أصوات القرآن كيف نتعلمها ونعلمها، ط/٤، ١٤٣١هـ، ٢٠١٠م دار بصائر للطباعة والنشر، ص: ٤٣.

(٢) كتب لي رأيه هذا كتابةً.

(٣) قال لي رأيه هذا شفاهةً.

اللحن مشينة ومؤسفة ويجب إيجاد قرار بإجماع من علماء القراءات في السودان للحدّ منها"^(١).

ويقول الدكتور عبد المنعم الربيع رئيس قسم القراءات بجامعة القرآن الكريم والعلوم الإسلامية بأمدرمان: "أولاً: هذه القراءات التي تُنسب إلى الدوبييت أو السلم الخرصي كما يحلو للبعض أن يسميه، هي قراءة لا سند لها؛ لأنه ليس لها من يصلها بالنبي (صلى الله عليه وسلم). ثانياً: لقد أدخل فيها المروّجون لها أشياء بعيدة عن عرف القراءة؛ من التمطيط ومدّ ما لا مدّ فيه. ثالثاً: الزيادة والنقصان في حروف المدّ والغن والوقف والابتداء، لذا نرى أنّه لا يجوز القراءة بما يُسمى بالدوبييت أو السلم الخرصي"^(٢).

فهذه أقوال وآراء علماء القراءات في السودان، ابتداءً من أكبر عالم أصوات في السودان، وأقدم مؤلف في التجويد في السودان (فيما أعلم) وهو البروفيسور يوسف الخليفة أبوبكر، مروراً بعمداء كليات القرآن الكريم، ورؤساء أقسام القراءات بجامعاتنا، الذين اجتمعت كلمتهم على رفض قراءة القرآن بلهجة أو لحن الدوبييت؛ فهي أولاً خارجة عن ألحان العرب وأصواتهم، والقرآن إنّما نزل بلسانٍ عربيّ مبين، فينبغي أن يُقرأ بالأصوات والألحان العربية؛ ولهذا فإنّ بعض قراءنا قد يكون حافظاً للقرآن حفظاً جيداً، ومجوداً مثل ذلك، ولكنّه عندما يذهب للمسابقات في بلاد

(١) قال لي رأيّه هذا شفاهةً.

(٢) كتب لي رأيّه هذا كتاباً في مقالة طويلة اختصرتها هنا لأغراض هذا البحث.

العرب وغيرها، لا يحصل درجة تليق بحفظه وتجويده؛ لأنه يقرأ بصوت شاذ بين المتسابقين، ويتفوق عليه آخرون ربما يكونون أقل حفظاً منه، لماذا؟ لأنهم استطاعوا أن يقلدوا الأصوات العربية وإن كانوا غير عرب! ومشكلتنا نحن أهل السودان نرفض التقليد، وهذا إن صحَّ وحسن في غير القرآن مثل الغناء مثلاً، فلا يصح في القرآن؛ لأنَّ الله وصفه بأنه قرآنٌ عربي، فلا يصح أن يُقرأ إلا كذلك.

الخاتمة

وتشمل النتائج والتوصيات.

نتائج البحث:

[١] أجمع العلماء من السلف والخلف على استحباب تحسين وتجميل الأصوات بالقرآن، وصحّت النصوص بذلك، ولكن بالشروط الآتية:

{أ} أن تكون القراءة بأصوات العرب وألحانها.

{ب} أن يلتزم القارئ بقواعد القراءة والتجويد.

{ج} ألا يقلد القارئ أصوات أهل الغناء أو أهل النوح والرهبانية.

{د} ألا يمطط الصوت تمطيماً يغيّر الألفاظ ويخفي على السامع المعاني.

[٢] أجمع أهل التخصص في السودان على أنّ ما ابتدعه البعض من القراءة بلحن الدوبيت؛ أمرٌ مخالفٌ لقواعد القراءة، وخارجٌ عن لحن العرب، ويجب التحذير منه.

توصيات البحث:

يوصي الباحث بالآتي:

[١] ينبغي على أقسام تخصص القراءات أن تستحدث مادة دراسية يمكن تسميتها التجويد الأعلى أو التخصصي، يكون موضوعها التدريب على النبر، ويمكن أن تستعين على ذلك بآلات علم الأصوات.

[٢] ينبغي على علماء القراءات في السودان أن يوجدوا وسيلة لضبط الأصوات والألحان كما اقترحه أستاذنا البروفيسور يوسف الخليفة أبو بكر، وأن يشركوا في ذلك المتخصصين في علم الأصوات.

[٣] ينبغي على أهل القراءات أن يؤسسوا هيئة مقارن كما هو الحال في مصر؛ تكون مهمتها تأهيل القراء، وتدريبهم، وضبط قراءاتهم بالضوابط المتفق عليها، وينبغي أن تتكون من الشيوخ البارزين في القراءات في جامعاتنا، وأن تكون لها قوانين ولوائح، وأن تكون معترف بها رسمياً حتى تتمكن من ضبط الإقراء وتوجيهه الوجهة الصحيحة.

قائمة المصادر والمراجع:

- [١] القرآن الكريم.
- [٢] يوسف الخليفة أبوبكر، أصوات القرآن، طبعة ١٤٣١هـ، ٢٠١٠م، دار بصائر للطباعة والنشر.
- [٣] جلال الدين السيوطي، المتوفى سنة ٩١١هـ، بغية الوعاة في طبقات اللُّغويين والنحاة، ط/٢، ١٣٩٩هـ، ١٩٧٩م، دار الفكر.
- [٤] الإمام يحيى بن شرف النووي، المتوفى سنة ٦٧٦هـ، التبيان في آداب حملة القرآن، تحقيق وتعليق: زهير شفيق الكبي، دار الكتاب العربي، ط/١، ١٤٢٤هـ، ٢٠٠٤م.
- [٥] أبو الحسن علي بن سليمان القرطبي، المتوفى سنة ٧٣٠هـ، ترتيب الآداء وبيان الجمع في الإقراء، تحقيق ودراسة: عبد الله بن محمد أكيد، ط/١، ١٤٣٤هـ، ٢٠١٣م، دار الأمان للنشر والتوزيع، الرباط، المغرب.
- [٦] الإمام علم الدين السخاوي، المتوفى سنة ٦٤٣هـ، جمال القراء وكمال الإقراء، تحقيق الدكتور: علي حسين البواب، ط/١، ١٤٠٨هـ، ١٩٨٧م، مطبعة المدني، المؤسسة السعودية بمصر.

[٧] جلال الدين السيوطي، المتوفى سنة ٩١١هـ، الجامع الصغير في أحاديث البشير النذير، ط/١، ١٤٢٣هـ، ٢٠٠٢م، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

[٨] الإمام أبي عبد الله البخاري، المتوفى سنة ٢٥٦هـ، صحيح البخاري "ضمن موسوعة الحديث الشريف الكتب الستة"، ط/١، ١٤٢٠هـ، ١٩٩٩م، دار السلام للنشر والتوزيع، الرياض، المملكة السعودية.

[٩] الإمام مسلم بن الحجاج، المتوفى سنة ٢٦١هـ، صحيح مسلم، ضمن موسوعة الحديث الشريف الكتب الستة، ط/١، ١٤٢٠هـ، ١٩٩٩م، دار السلام للنشر والتوزيع، الرياض، المملكة السعودية.

[١٠] الإمام محمد بن محمد بن الجزري، المتوفى سنة ٨٣٣هـ، غاية النهاية في طبقات القراء، نشر ج: برجستراسر، ط/١، ١٣٥١هـ، ١٩٣٢م، ط/٣، ١٤٠٢هـ، ١٩٨٢م، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

[١١] الإمام أحمد بن حجر العسقلاني، المتوفى سنة ٨٥٢هـ، فتح الباري شرح صحيح البخاري، تحقيق وإجازة الشيخ عبد العزيز بن باز (رحمه الله)، ط/١، ١٤٢٧هـ، ٢٠٠٧م، دار الفكر، بيروت، لبنان.

[١٢] الإمام الحافظ الذهبي، المتوفى سنة ٧٤٨هـ، معرفة القراء الكبار، ط/١، ١٤١٧هـ، ١٩٩٧م، تحقيق: محمد حسن إسماعيل الشافعي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

[١٣] الإمام نصر بن أبي مريم، المتوفى سنة ٥٦٥هـ، الموضح في وجوه القراءات وعللها، تحقيق ودراسة: الدكتور عمر حمدان الكبيسي، ط/١، ١٤١٤هـ، ١٩٩٣م، جامعة أم القرى، مكة المكرمة.

[١٤] الإمام محمد بن محمد بن الجزري، المتوفى سنة ٨٣٣هـ، النشر في القراءات العشر، ط/١، ١٤١٨هـ، ١٩٩٨م، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

[١٥] أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرج الأندلسي القرطبي، المتوفى سنة ٦٧١هـ، الوجيز في فضائل الكتاب العزيز، تحقيق وتعليق الدكتور: علاء الدين رضا، ط/١، ١٩٩٢م، دار الحديث القاهرة.